



مع شهرة الحديث التالي لم أجد من لفت النظر لأبرز دلائله الأخلاقية، وسماته الراقية، وألفاظه السامية، ما يعكس تناقضًا ملموساً!

أعني الحديث المشهور عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال:

«كَانَ ابْنُ لَيْبِي طَلْحَةَ يَشْكِي، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ، فَقُبِضَ الصَّبِيُّ. فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ، قَالَ: مَا فَعَلَ ابْنِي؟

قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: هُوَ أَسْكَنُ مَا كَانَ، فَقَرَرَتْ إِلَيْهِ الْعَشَاءَ فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَتْ: وَارُوا الصَّبِيَّ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ فَأَخْبَرَهُ.

فَقَالَ: أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا. فَوَلَدَتْ غُلَامًا.

قَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: احْفَظْهُ حَتَّى تَأْتِي بِهِ النَّبِيُّ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيُّ وَأَرْسَلَتْ مَعَهُ تَمَرَاتٍ، فَأَخْذَهُ النَّبِيُّ.

فَقَالَ: أَمَعَهُ شَيْءٌ؟

قَالُوا: نَعَمْ، تَمَرَاتٌ، فَأَخْذَهَا النَّبِيُّ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ أَخَذَ مِنْ فِيهِ، فَجَعَلَهَا فِي الصَّبِيِّ وَحَنَكَهُ بِهِ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ» [1].

لن نتناول الحديث من الأبواب التي ترجم له العلماء بها، وهي أبواب: تحنيك المولود، وتنسميتها، والخميصة السوداء، ووسم الحيوان، والفضائل، وغيرها من الأبواب الجليلة؛ فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يبهني الحديث من جانب لم أجد أعظم منه رقياً، وهو رقي الألفاظ المستخدمة، والتي تشير إلى أخص أنواع العلاقة الزوجية، والتي سترها الله سبحانه وتعالى حتى عن أقرب المقربين من الآباء والأمهات، والبنين والبنات، فلا يعلم بها غير رب الأرض والسماءات تعالى شأنه وجل عن الزلات والهفوات.

فانظر إلى التعبيرات الراقية في الحديث المستخدمة للكنایة عن الجماع، وتأمل رزقني الله وإياك الحياة في تعبير أنس رضي الله عنه مشيراً للجماع بقوله: «ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا»! وهي لفظة جمعت في مرادها بين الرقة والدقة، وفي سياقها بين الخفاء والنقاء، فنعم المراد من نعم المرید رضي الله عنه!

ثم تأمل رزقني الله تعالى وإياك الحياة في تعبير أبي طلحة رضي الله عنه عن الجماع بقوله: «تَطَّخْتُ». والتلطخ: هو أن يتعلّق بالرجل شيءٌ من الطيب الذي تطيبت به زوجه وهي تتنزّه له، فكأنّ رضي الله عنه عن الجماع بالطيب والعطر! ألا فما أطيبها من كنایة أطيب من كل طيب!

ثم تأمل رزقني الله وإياك الحياة في تعبير النبي صلى الله عليه وسلم، وإشارته إليه بقوله صلى الله عليه وسلم: «أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟»، والتّعرّيس: هو نزول القوم في السفر من آخر الليل في مكان ما للنوم[2]، فعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الجماع بكنایة رقيقة، وهي النوم في السفر، وهي كنایة عن الشيء بزمانه، ومكانه بغير النطرق لأصله وبيانه!

فإليك يا طالب الخلق الحسن ثلاثة تعبيرات مختلفة عن شيء واحد وهو الجماع؛ علّنا بذلك نتعلم الأخلاق الفضيلة، والكلمات الطاهرة من خير السلف رضي الله عنهم، لنكون لهم بعون الله عز وجل خير خلف.

وعندما ألقى الله سبحانه وتعالى في روعي مقارنةً بين هذا الحديث الرقيق، وذلك الموقف الدقيق، وما تميّز به من السياق الراقي، والتعبير السامي؛ وما يضم الأذن من الألفاظ الفجة، والعبارات المموجة حتى توشك الأذن أن تتقى ما تسمع، تلك التي يستخدمها بعض الناس، طرح على خاطري سؤال خطير، وهو:

ما سبب هذه المفارقة العجيبة في الأسلوب، وذلك التباهي الرهيب في السياق؟

فإذا بقوله سبحانه وتعالى يلوح في الأفق: {أَفَلَا يَتَبَرَّوْنَ الْقُرْآنَ} [النساء: 82].. نعم إنَّ الفرق بين رقي الألفاظ، وانحطاط أسلوب الكثرين يكمن في تدبر القرآن لا غير!

وذلك أنَّ منهج الصحابة رضي الله عنهم في تعلم القرآن وأخذه لم يكن قائماً على إتقان الألفاظ، وتجميل الأصوات، وحصد الجوائز كما هو أخذ الكثرين اليوم، بل كان قائماً على التدبر والتفهم والعمل والاقتداء.

فلا نعجب إذن أن نسمع هذه التعبيرات الراقية، والكنایات السامية من الجيل القرآني الذي تربى على القرآن، وأنّ لنا العجب وقد استقى هذا الجيل القرآني معجمه المستعمل من التعبيرات القرآنية السامية!

وتأمل إن شئت بعض التعبيرات القرآنية عن «الجماع» لتعلم الأثر القرآني على جيل الصحابة:

فمن هذه الكنيات الإلهية عن الجماع:

«الإتيان» في قوله تعالى: {فَأَتُوا حَرَثُكُمْ أَنَّى شِتْمٌ} [البقرة: 223].

«الدخول» في قوله تعالى: {مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ} [النساء: 23].

«الاقتراب» في قوله تعالى: {وَلَا تَقْرِبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرُنَّ} [البقرة: 222].

«المباشرة» في قوله تعالى: {وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [البقرة: 187].

«الإفضاء» في قوله تعالى: {وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ} [النساء: 21].

«المس» في قوله تعالى: {وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ} [البقرة: 237].

«اللامسة» في قوله تعالى: {أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} [النساء: 43].

«الاستمتاع» في قوله تعالى: {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ أُجُورُهُنَّ} [النساء: 24].

«التغشى» في قوله تعالى: {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيقًا} [الأعراف: 189].

ويكفيك أن تقرأ الحكاية الإلهية بأسلوبها الرباني الراقي عن سقوط امرأة في قاع القاع من الشهوة البهيمية لتأكد بنفسك أنك أمام الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وذلك في قصة امرأة العزيز!

فقد يكون في جيلنا من حفظة القرآن أضعاف حفظة جيل الصحابة رضي الله عنهم، ولكن أبداً لن تجد من هو أعظم منهم تدبراً، وأجل استقامة على منهجه السامي الحميد!

وهذه أعظم سمات هذا الجيل القرآني الفريد! أنه جيل تربى على القرآن كمنهج وليس كمقرر دراسي، أو لمجرد التلاوة اللغظية!

وهكذا كان صلٰى اللهٰ عٰلٰيٰ وسلٰمٰ يُكَيِّي دائمًا عن الأمور الحرجة، ومن ذلك قوله صلٰى اللهٰ عٰلٰيٰ وسلٰمٰ: «حَتَّى تَدُوقِي عُسَيْلَاتُهُ وَيَدُوقَ عُسَيْلَاتِكَ» [3]، فكَيٰ صلٰى اللهٰ عٰلٰيٰ وسلٰمٰ عن الجماع بالعسيلة، وذلك لامرأة رفاعة إذ أرادت الرجوع لزوجها الأول.

ومن كنایته النبویة عن العورات الحساسة ما جاء عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهم: قال: «كَسَانِي رَسُولُ اللهِ قُبْطِيَّةً [ثوب أبيض شديد البياض] كَثِيفَةٌ مِمَّا أَهْدَاهَا لَهُ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي.

فَقَالَ: مَا لَكَ لَمْ تَلْبِسِ الْقُبْطِيَّةَ؟

فَقُلْتُ: كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي.

فَقَالَ: مُرْهَا فَتَجْعَلْ تَحْتَهَا غَلَالَةً [الثوب يكون تحت الدرع]، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ عِظَامَهَا» [4].

فانظر رحمني الله وإياك قمة السمو النبوى.. إنَّ الثوبَ الشفافَ يصفُ المحسانَ اللينةَ للمرأة، ويكشفُ عوراتها عيادةً بالله، ولكنَّ النبي صلٰى اللهٰ عٰلٰيٰ وسلٰمٰ كَيٰ عن العورات، والأعضاء اللينة بلفظ العظام! وهو لفظ مليء بالوقار والاحتشام بعيد عن

والاليوم، على العكس من ذلك تماماً، تجد مذيعةً يستضيف طبيبة على الهواء لتحدث فيما يُظنُّ أن إبليس يستحيي منه، ومذيعة تستضيف طبيباً على الهواء لتحدثه فيما لا يجوز أن تتحدث فيه مع أمها!

وشر من هذا وذاك متسللون بسرbal الدعوة يتخيرون أقذع الألفاظ، وأفحش التعبيرات! وشر من هذا كله أنهم يستدلون على فحشهم بنصوص صحيحة لها قرائتها التي توجب التوضيح مكان التلميح، وتفرض العبارة مكان الإشارة، وذلك لخطورة موقف عظيم اضطُرُوا لخطره إلى البيان صراحة إذ لم يف خفاء الكناية!

وهذا ما لا يتجرأ أحد على إنكاره؛ كمواطن الشهادة، والقضاء، وما لا تتحقق المصلحة بغيره من التصريح والبيان. ولكنَّ هذا التَّمَحُك في الدين، ونسبة الفحش لسيد المرسلين صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يشير إلى الهوى في انتقاء الأدلة، والانتكاس في فقه الاستدلال، وطمس في نور البصيرة!

ألا وقد أشار نبينا صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهؤلاء المنكوسين بقوله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَبُّ حَامِلِ فَقْهٍ لَّيْسَ بِفَقِيهٍ»[5]، نعوذ بالرحمن الرحيم من الزيف والهوى وطمس البصيرة! أما سمعوا قوله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَحْشَ، وَلَا التَّفَحُشَ»[6]. ألا فإنَّ الفحش من علامات النفاق، وآيات المنافقين عيادةً بالله.

وكما أن التغافل في الألفاظ من سمات الشخصية القرآنية التي تهذب على آداب القرآن! فعلى النقيض تماماً نجد التفاحش من أبرز سمات المنافقين أعاذنا الله منهم.

وذلك كما جاء عنه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يقول: «إِنَّ الْحَيَاءَ، وَالْعَفَافَ، وَالْعِيَّ، عَيَّ الْلِّسَانَ، لَا عَيَّ الْقَلْبِ، وَالْفِقْهُ مِنَ الْإِيمَانِ. وَهُنَّ مِمَّا يَزِدُّنَ فِي الْآخِرَةِ، وَيُنْقِصُنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا يَزِدُّنَ فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرُ. إِنَّ الْبَذَاءَ، وَالْجَفَاءَ، وَالشَّحُّ مِنَ النِّفَاقِ، وَهُنَّ مِمَّا يَزِدُّنَ فِي الدُّنْيَا، وَيُنْقِصُنَ فِي الْآخِرَةِ، وَمَا يُنْقِصُنَ فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرُ»[7].

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه؛ عَنِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ»[8].

ومن ذلك ما جاء عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ»[9].

والخلاصة: إنَّ انتقاء أرق الألفاظ، وانتخاب أسمى العبارات، و اختيار أرقى التعبيرات للإشارة عن الأمور المحرجة من دلائل الإيمان.

وكذلك فإنَّ التفاحش في الألفاظ، وذكر العورات، والحديث عن أمور النساء بغير المنهج الشرعي من دلائل النفاق عيادةً بالله! فالحمد لله الذي أنعم علينا، وعلَّمنا أرقى الكلمات، وأسمى التعبيرات، وأنقى العبارات بالكتاب والسنَّة، ويا لها من نعمة تستوجب الشكر من خلال تعلمها، وتدبرها، والعمل بها، إذ الرقي في الأسلوب بعض ثمرات التدبر لكتاب المجيد.

اللهم بحق وجهك الكريم نسائلك أن تجعلنا ممن زكيتهم بقولك العزيز: {وَهُدُوا إِلَى الْطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} [الحج: 24].

المصادر:

مجلة البيان